



خطب مصعب بن الزبير في البصرة سنة سبع وستين للهجرة، فقرأ: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَى الْأَرْضِ وَجَحَّلَ أَهْلَهَا شِيَعًا} (القصص).. وأشار بيده صوب الشام؛ يعني: بني أمية!

{وَتُرِيدُ أَن تَمُنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلُهُمْ أَئِمَّةً} (5:القصص)، وأشار بيده صوب الحجاز؛ يقصد أخاه عبد الله، ومن معه بمكة..

{وَتُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ} (6:القصص)، وأشار بيده صوب العراق؛ يقصد المختار بن أبي عبيد.

القصة تدريب على استنطاق الآيات في الظروف الحاضرة مع ما يحثّ بذلك من إمكان الخطأ والصواب.

من عادة المعنين بالسياسة أن يتحدىوا عن النوازل الكبيرة، ويُشبعوها تحليلًا، وتفكيكًا، وتعليقًا على آثارها ونتائجها، والقرآن يعلّمنا طريقة أخرى تهتم بالقصص الصغيرة الجانبية حيث جاء ذلك النص الفخم العظيم؛ المعير عن الإرادة الملكية الرئانية بالمن على المستضعفين، وإهلاك المستكبرين، ثم أعقبه قوله: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ} (7:القصص).

من الإيحاء لأم موسى أن ترضعه، فإذا خافت عليه ألقته في نهر النيل.. تبدأ القصة!

وفي قصة يوسف ذكر وقوعه في الاستعباد، وخضوعه للخدمة في بيت العزيز، ووصية العزيز زوجته به عسى أن ينفعهم أو يتذذوه ولداً، ثم قال: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَاهُ لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ} (56:يوسف)

حيطٌ رفيع لا يراه الناس تجري به أقدار الله الحكيم، ولذا يقول لموسى: {ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ} (40:طه)، كل التفصيات مرسومة في القدر من حمله، فميلاده في العام الذي يُقتل مواليده، فرميه في البحر.. إلى آخر الخطوات الصغيرة في نظر الناس، وحتى (اليَمِّ) وهو: النهر أو البحر، له مهمة محددة يؤمر بتنفيذها، كما تؤمر الأم الرؤوم سواء بسواء: {أَنِ اقْذِفْهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفْهِ فِي الْيَمِّ فَأَلْيُلُهُ الْيَمُ بِالسَّاحِلِ} (39:طه)!

العجلة في التغيير، والإصرار على مشاهدة النتائج والآثار تتنافي مع حكمة الله القائل: {وَلَتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} (39:طه)

لكي تتعرّف على المستقبل تأمّل في البدايات البطيئة الصغيرة، وابحث عن السر الإلهي في طيّاتها، ولا ترهن الأمر ب مدى

عمرك المحدود، فتدبر الله لا ينتهي بنهاية حياتك المباركة!

وفي الحالات كلها يأتي التعبير القرآني: {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} (القصص: 9)؛ تنويهاً بأنه لم يخطر على بالهم أي خاطر يتعلق بالأمر، وهو بمعنى: {مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا} (الحشر: 2)، ولكنه أبعد مدى، فعدم الاحتساب كان أثناء المعركة، ولكن الله أتاهم من جهة لم يظنوها!

عاش موسى في القصر الفرعوني سنين عدداً ليغادر مدينته (ممفيس) راجلاً خائفاً إلى مدين، ويقطع ألف وأربعين كيلو متر بصبرٍ عجيب، ثم مكث بمدين ما لا يقل عن عشر سنوات يرعى الغنم؛ بعيداً عن أسرته وعن قومه؛ الذين حمل همهم، وحلم بأن يُسْهم في رفع الظلم عنهم.

ومكث يوسف في قصر العزيز حتى بلغ أشده، وصار رجلاً مكتمل الرجولة، ثم لبث في السجن بضع سنين.. قيل: هي تسع، وهذا قريب، قبل أن يُمْكِن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء.

هذا يُعلِّمنا ألا نتعسَّف الدور، ولا نحرق المراحل، ولا نتحرك وفق الأوهام والخيالات والأمنيات؛ التي لم تُبن على رؤية ناضجة، عارفة بالسياقات والأحوال، وموازين القوى، والإمكانات القريبة والبعيدة..

إن أحلام النصر والتمكين العامة ونبيوتها تنفع حين تكون عقيدة هادئة؛ تحفظ النفوس من اليأس والإحباط، وتحافظ على هوية الأمة وتحميها من الانكسار، وهذا ما كان يحفظ الأمم السابقة من الانهيار والذوبان، وهو ما كان يُبَشِّر به النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه، وهو ما يحفظ للفلسطينيين - مثلاً - روح الإصرار والصبر الجميل.

أما حين ننظر إليها على أنها وعود تتعلق بشخوصنا، وأن من المحتم أن تتحقق على أيدينا، فكأننا نستعجل إرادة الله؛ التي لا تقدَّم ولا تتأخر..

وعد الله بني إسرائيل أن يجعلهم أئمة و يجعلهم الوارثين، ويورثهم جنات الفراعنة، وعيونهم، وكنوزهم، وزروعهم.. فماذا حدث؟

خرج قوم موسى من مصر فجعل الله فيهم أنبياء وجعلهم ملوكاً، أي: جعلهم أمة مستقلة تملك زمام أمرها وتستقل بقرارها، ونجت من سلط الفراعنة واستعبادهم، ونعمت بخيرات أرضها؛ من المسكن والخدم والقوت، وكأنما حِيزَت لها الدنيا!

ومكَّن لهم في الأرض، أي: جعل لهم (مكاناً) يستقرُون فيه، ويقيمون مملكتهم؛ التي تسوسها أنبياؤهم.

ويحتمل أن يكون بعض بني إسرائيل؛ الذين لم يخرجوا مع موسى، ورفضوا الهجرة لمصالحهم المرتبطة بالنظام الفرعوني، استغلوا فرصة انهيار النظام، فسطوا على بعض الكنوز والعقار التابع للحكومة السابقة؛ لأنهم كانوا قريباً منها بحكم طبيعة أعمالهم في الخدمة والحراسة والعسكرية، والله أعلم.

وعاد الفراعنة يحكمون ما شاء الله بعد ذلك في مصر.

تصوُّر ما حدث يُعطي العاقل بصيرة في طبيعة التحولات المرتقبة، وأنها تكون متدرجاً غالباً، وحتى حين تكون حادة وصارمة في التغيير والانتقال فسرعان ما يدب إليها الضعف، وتدركها السنن، {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ} (الأعراف: 34).

وإنما الوعد الأعظم هو في الانتقال من الدنيا ونواتيها الجارية إلى الآخرة: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ} (الرعد: 26).

الإسلام اليوم

المصادر: